



كلما تعرّف العالم إلى «النظام الدولي» الذي يدعو إليه فلاديمير بوتين للتيسّر الأمر عليه، لأن النسخة الروسية في تطبيقها السوري أخذت بمزيج من أسوأ ما جاءت به النسخة الأميركيّة متجرّدة من أي قيم إنسانية أو أخلاقية، ولو أن الأميركيين لم ينجحوا دائمًا في احترامها.

في العراق كانوا قوة احتلال، وخارج مظلة الأمم المتحدة، ولم تكن فضيحة سجن أبو غريب مفخرة لهم، وعلى رغم محاولات الطمس وإخفاء الحقائق إلا أنها أدّت إلى محاكمات ومحاسبات لعدد من العسكريين.

كم عدد العسكريين الروس الذين تعرّضوا للمساءلة على جرائم ارتكبوا في الشيشان، على سبيل المثال، أو في «الجمهوريات» الـ 14 التابعة لها وتسعى إلى ضم جورجيا إليها، ولماذا قُتلت الصحافية آنا بوليتوفسكايا عام 2006 بعدما كشفت تلك الارتكابات وقدّمت توصيًّا مبكراً لـ «ديمقراطية بوتين»، أو «الديمقراطية المتهاوية» كما سُمّتها؟

تبُدو الدبلوماسيّة الروسيّة، في مقاربتها للأزمة السوريّة، وكأنّها استنسخت كتاب السلوك الذي تتبعه الدبلوماسيّة الأميركيّة في حمايتها المطلقة وغير المنشروطة لإسرائيل.

وإذا كانت هذه كثيًراً ما توصف بأنها دوغمائية متجردة أو حتى أيديولوجية، فإن افتقاءها الروسي يبدو تقليديًّا حرفيًّاً أعمى. وفي المرات النادرة جدًّا التي جازت فيها إدانة إسرائيل، مجرد إدانة لفظية لا عواقب لها، كانت واشنطن تجهد وتجتهد لتشمل الإدانة «الطرفين» أو «جميع الأطراف»، وحين تكون الجريمة واضحة المعالم ولا مجال فيها لإقليم أي طرف آخر يكون «الفیتو» الأميركي جاهزًا بلا أي مواربة، فلا مجال لإدانة يمكن أن يُبني عليها لاحقًا.

طوال عامين لم تشدّ موسكو على هذا الأسلوب، مانعة صدور أي قرار، على رغم أن المسألة السوريّة طفت على جدول الأعمال الدولي كما هي اليوم في الجمعية العامة للأمم المتحدة.

كان يحصل أحياناً أن تعتمد الإدارة الأميركيّة لهجتَين حيال مخالفة ما للقانون الدولي، إذ تعنّف إسرائيل من واشنطن معبرة عن موقف شبه مبدئي ثم تسايرها في نيويورك فارضة إرادتها على مجلس الأمن.

أما موسكو فلم تُسمع منها كلمة انتقاد واحدة لنظام بشار الأسد، فلا المجازر ولا القصف بصواريخ «سكون» ولا غارات الطيران الحربي ولا استخدام السلاح الكيماوي أخيراً استحقّت منها وقفه، على رغم أن كل موافق بوتين وزيره سيرغي

لافروف تحرص على إبراز مرجعية «القانون الدولي» وتحاضر في احترامه وضروره «التطبيق السليم» له.

شكلت الأزمة الكيماوية فرصة ذهبية للثاني بوتين - لافروف كي يؤدي «رقسته» الخاصة على أنغام القانون الدولي، خصوصاً أن الولايات المتحدة تأهبت للتحرك عسكرياً خارج إطار مجلس الأمن.

لم تكن موسكو (ولا بكين بالطبع) جاهزة لهذا الدور في 2003 عشية غزو العراق لأن جورج دبليو بوش أرسل جيوشه وحشد تحالفه واتخذ قراره، و في 2011 عندما مررت قرار فرض حظر للطيران فوق ليبيا لأن باراك أوباما جير القيادة لرجلين مصممين هما نيكولا ساركوزي وديفيد كاميرون.

والأكيد أنه لو كان أوباما على التصميم نفسه لضرب النظام السوري لتكيفت روسيا مع الحدث على مضض مكتفية بالسعي إلى إفساده وإقامة صعوبات أمامه أو على الأقل باستغلاله لبيع مزيد من السلاح لنظام دمشق وبغض الثمن نقداً من طهران.

غير أن ركاكت الزعامة الأمريكية هيأت لموسكو إعادة إنتاج زعامتها إنكاءً على الأزمة السورية، وتكمن المفارقة في أن الاتصالات الروسية - الأمريكية في شأن سوريا، على كل المستويات، أكدت أن الدولتين تنتهجان سياسة سلبية تحقق لكلٍّ منها مصالحها بمعزل عن الأخرى أو بمقدار من التواطؤ معها، لكنها برهنت خصوصاً أن سياستين سلبيتين لم تتمكنا من صنع سياسة إيجابية واحدة تُعنى بحل الأزمة، فما يصح في الرياضيات لا يصح في الدبلوماسية.

يسعى بوتين إلى استعادة دور روسيا اندر تحت ركام المعسكر الاشتراكي، بل لإعادة إنتاج مصطلحات الحقبة العقيدة السابقة وسياساتها لكن من دون اتحاد سوفيatic.

وفي الأسبوع الماضي أوضح نائب وزير الخارجية الروسي سيرغي رياشكوف من دمشق أن «القضية السورية باتت تشكل أولوية لروسيا ومحوراً للسياسات العالمية»، ورد الأسد بأن مواقف روسيا المساعدة لنظامه «تبعد على الأمل في رسم خريطة جديدة للتوازن العالمي».

فمن سوريا المأزومة المدمّرة تتبع روسيا «الجديدة»، أما «سوريا الجديدة» فلا أمل لها بالابتعاث بفضل روسيا التي لا تخفي ولا تنسى أبداً أن أولويتها هي مصلحة روسيا، بطبعية الحال.

ولكي تكتمل عناصر اللغة الخشبية فإن موسكو حددت عناوين سياستها السورية: «حل سياسي، التمسك بالقوانين الدولية، رفض التدخل باستخدام القوة، واحترام حق الشعوب في رسم مستقبلها».

هذه عناوين «مبئية» تبدو مقبولة لكنها قد تعني، واقعياً، وكما تطبقها موسكو، عكس ما تقوله تماماً.

إذ اتضح جلياً أن «حق الشعوب» عندها هو حق النظام أو «الحكومة القائمة» فمن شأنهما وضع محددات «الحل السياسي» لأنهما متفوقان في سفك الدماء، وما على المعارضة سوى الرضوخ طوعاً أو تعمد القوى الدولية إلى «إجبارها» عليه.

أما «التمسك بالقوانين الدولية» فيكون بتعطيلها إما بـ «الفيتو» أو بإغلاق مجلس الأمن. وإنما اللجوء إلى القوة، كما بدا الأمر في إدارة ملف السلاح الكيماوي، فيمكن أن يعالج استثنائياً بشيء من «الإيجابية» المخادعة، طالما أن تهديد أوباما كان بمثابة فقاعة.

الذهاب إلى استخدام القوة لا يناسب «استراتيجية» بوتين، أولاً لأنه يمثل ذروة التحرك الغربي - الأميركي ويضنه أمام خيارات مريكة، وثانياً لأنه يفسد عليه لعبته المفضلة، أي التحايل في تطبيق القانون الدولي.

صحيح أن بوتين قد يجد مصلحة في تورّط الطرف الآخر، لكن إجهاض مشروع الضربات الصاروخية أظهره كمن انتصر في حرب لم يردها ولم تكله شيئاً فيما أظهر أوباما كمن خسر حرباً لم يخضها.

وفوق ذلك بيّنت «صفقة كيري - لافروف» أن روسيا احتفظت باليد العليا في إدارة الأزمة، لأنها تمكّنت من فرض منهجها ومفهومها لمعالجة ملف السلاح الكيماوي.

لذا تفافزت الاستخلاصات الفائلة إن «نظاماً دولياً جديداً» قد ولد، وإن قيادته تؤول إلى روسيا بدليل أنها أوقفت – بالدبلوماسية – صوراً يخ كانت ستعود تلميع الزعامة الأميركيّة.

وقد أثبتت وقائع التفاوض أن الشروط كانت روسية والموافقة الأميركيّة، وكلاهما صيغ بذهنية الالتفاف على «روح القوانين». وقام المنهج الروسي أن: لا سبييل لإعمال القانون الدولي (الذي يطالب يومياً باحترامه) لأنّه يحظر إقتناء السلاح الكيماوي ويدعو إلى معاقبة من يستخدمه، لكن في الحال السوري لا جريمة ولا مجرم ولا عقاب، لكن لدينا السلاح، فلنضع اليد عليه وننهي أمره.

وعلى رغم أن هذه العملية لا بد أن تتم – قانونياً – تحت الفصل السابع، إلا أن اتفاقاً بين الدولتين الكبيرتين يمكن أن يتمتع بقوة أكبر من ميثاق الأمم المتحدة.

لا يعني ذلك أن الروس يتلاعبون بالقوانين الدوليّة فحسب، بل يعتمدون أيضاً على تفاهمات ضمنية مع الأميركيّين. صحيح أن واشنطن ترأس «أصدقاء الشعب السوري» وموسكو تتزعم «أصدقاء النظام»، إلا أن الدولتين متوافقتان تماماً على شرط أساسي للتعامل مع الأزمة السورية، وهو: أمن إسرائيل أولاً.

إذاً، فالخلص من السلاح الكيماوي يأتي في سياق احترام هذا الشرط، الذي لم يبلغ بعد وقد لا يبلغ أبداً حد التوافق على التخلص من النظام السوري.

هذا ما يعتبره الأسد «توازناً عالمياً»، وبالتالي ضماناً لبقاءه، فأمن نظامه من أمن إسرائيل طالما أنه يواصل مهمة القتل الموكولة إليه.

الحياة

المصادر: